



متحف مصر



0193208

Biblioteca Alexandrina

كتاب المعرفة  
البيزان



بِحَمْرَةِ الْعَزِيزِ زَرْعَهِ  
يُبَشِّرُ شَهِيدَ الْمُتَّصِّلَةِ  
الْمُسَبِّحَ  
الْمُكَنْدِرَةَ

# فَلَسْنَةُ النُّورَةِ فِي الْمِيزَانِ

بِقَلْمِ

عَبَّاسِ مُحَمَّدِ الْعَقَادِ

دَارُ الْعِسَارِفِ بِمَصْرِ



## الثورة الفرنسية

١ - كان شعار الثورة الفرنسية هذه الكلمات الثلاث : الحرية ، والإنماء ، والمساواة . وهي كلمات منغومة على قافية واحدة في اللغة الفرنسية ، يحسب الكثيرون من يسمون المتأف بها أنها قد اختارت لحسن وقوعها في الأسماع وسهولة بصرها على الألسنة . ويظنو أن كل (الفاظ ثلاثة) من قبيلها تغنى عناءها وتسهوي الأسماع استهواها . ولكنها في الواقع كانت كلمات الثورة الفرنسية التي لا تصلح لها كلمات سواها ، وكانت كل كلمة منها مدرسة لغاية مقصودة لا تغنى عنها غاية أخرى ، لأنها كانت محور الخلاف القديم بين الأنصار والمحضوم . كانت (الحرية) غرضاً مقصوداً وببدأ مختلفاً عليه ، إذ كان الملوك يزعمون أن الملك يحكم بالحق الإلهي ، وأن سلطانه مستمد من سلطان السماء فليس للرعاية حرية مع راعيها ، لأن مشيته من مشيطة الله فن خرج عليه فهو خارج على خالقه ومولاه ؛ أما الثائرون فكانت مشيطة الشعب عندهم هي قوام الحكم وسنته الذي لا سند له غيره ؛ فشيطة الشعب من مشيطة الله ، وعلى الملوك أن تطيع شعوبها وتعمل على رضاها ، وإلا فهم الخارجون على سلطان الأرض والسماء . كذلك كانت كلمة الإنماء مبدأ مختلفاً عليه أشد الاختلاف أو كان الاختلاف عليه مجرد قصوى فيها على أكثر من مائة

ألف فرنسي قبل جيلين . وأوجبت هجرة الملايين إلى غير بلادهم قبل عصر الثورات بسنوات : إذ كانت العقيدة الغالبة أن الخلاف بين المذهب الكاثوليكي والمذهب البروتستانتي خلاف بين الأبرار والأشرار . وأنه لا هوادة بين الفريقين إلا كما تكون الموادة بين حزب الله وحزب الشيطان : وفي سيل ذلك سالت الدماء بين الفريقين وصدرت الأوامر الصريحة بتنقية كل فرنسي يدين بتحوله غير التحولة التي ارتضاهما ولاة الأمور .

أما دعاء الثورة الفرنسية فقد كانوا ينكرون هذا الخلاف وينادون بشرعية الإخاء في الوطن الواحد . فلا عداء بين أبناء الوطن : لأن (الوطن) أبو الجميع . وكل أبنائه إخوة متحابون . ومن هنا تقرر مبدأ الإخاء . وكذلك كانت كلمة (المساواة) محل خلاف وزراع ومجادلات ومناظرات يشترك فيها المفكرون كما يشترك فيها المؤمنون المتقين . فلا مساواة بين النبلاء والسوقة ولا بين الموسرين والمسرعين في رأي أعداء الثورة ، ولا تفاوت بينهم في رأي دعاتها والمطالبين بإصلاح المجتمع على أساسها ، ولقد كان الزراع ملحوظاً معترفاً به في تكوين المجالس النيابية الأولى ، فكان النواب يحضر ونها على حسب ما بينهم من التفاوت في الدرجات والطبقات .

## الثورة التركية

والمعروف أن جماعة (تركيا الفتاة) كانت تقتدى بجماعة إيطاليا

الفتاة . وأن رئيسها الفيلسوف أحمد رضا كان كثير الاطلاع على كتب ماتزيني وفلسفة أووجست كونت . وكان مشهوراً بدقته في اختيار كل كلمة من كلاماته . لا سيما الكلمات التي ترجم بها الخطط وبرامج الإصلاح : فلما اختارت هذه الجماعة شعارها لثورة التركية لم تذكر كلمة الإخاء وذكرت في مكانتها كلمة العدالة : ولم يكن قصارى ما في الأمر إيدال كلمة بكلمة أو لإشار نغمة على نغمة في نشيد الثورة . بل كان هذا الإيدال مقصدأً أساسياً في برنامج النهضة يدل على تفصيلات واسعة في سياسة الحكم الحديث ، فلم يكن هناك معنى لوضع كلمة الإخاء في شعار ثورة تركيا . فإن الأمة التركية قد فرغت من تقرير الأخوة بين المسلمين في بلادها وغير بلادها ، و « إنما المسلمون إخوة » حقيقة من حقائق الإيمان بالدين جرت على لسان الطفل الصغير والشيخ الكبير ؛ فإذا نظر المصلح التركي إلى الأقوام الآخرين في الدولة . فمبدأ المساواة يشملها جميعها على اختلاف الأجناس والأديان .

أما النص على مبدأ العدالة بين المبادئ التي يرددتها شعار الثورة فقد كان لازماً لبيان خطتها في الداخل والخارج . كان لازماً لبيان خطتها في مسألة الامتيازات الأجنبية ، وهي ظلم واقع على أبناء البلاد تشير المطالبة بالعدالة إلى ضرورة رفعه ومعاملة الأجنبي معاملة الوطنى في بلاده ؛ وكان لازماً لبيان خطتها في مسألة الأحوال الشخصية التي كانت ترجع في كل هيئة دينية إلى سنة تحالف غيرها في شئون الزواج والطلاق والميراث ؛ وكان لازماً لبيان القواعد التي يقوم عليها التشريع في القوانين

الوضعية والقوانين الدينية أو العرفية ؛ فكانت كلمة (العدالة) مبدأ لا يغتى عنه مبدأ آخر في مكانه ، ولم تكن مجرد نغمة في التشيد تعادل غيرها من النغمات .

## الثورة الصينية

وواجهت الثورة الصينية فلم تذكر كلمة واحدة من كلمات الثورة الفرنسية الثلاث . لم تذكر الحرية ولا الإخاء ولا المساواة ، ولم تهملها لأنها تأباهما ولا تحبها كما يحبها الفرنسيون ؛ ولكنها لم تجد لها معنى يستوجب النص عليه في شعارها ، لأن تاريخ الصين قد اتسع غير مرة لارتفاع آحاد الشعب إلى عرش ابن السماء ، ولأن عبادة الأسلاف عندهم تجعل القرابة المفروضة بينهم كقرابة الدم والسلالة ، ولأن نظام الرق قد بطل في تاريخهم لأسباب محلية قضت على الفارق التقليدي بين السادة والعبيد ؛ فلهذه لم تكن بهم حاجة إلى ثورة للمطالبة بالحرية والإخاء والمساواة ؛ ولم تكن مبادئ الثورات الغربية قبلتهم في القرن العشرين ولا فيها تقدمه من القرون . واختار زعيمهم العظيم مبادئ ثورتهم فحصرها في كلمات ثلاث مقصودة بكل حرف من حروفها ، وهي مبادئ القومية والديمقراطية والاشراكية القومية لـ إحلال الوطن محل الدولة في معاملة المغول والمنشوريين والترار وأبناء التبت المشتركين على الحدود . والديمقراطية يقصد بها غالبية الشعب لا مجرد الحرية الشعبية ، لأن الزعيم العظيم (سن يا تسن) كان يتسع

بديقراطيته ولا يقنع بتطبيقاتها في بلاده كما تطبق في الأمم الأوروبية أو الأمريكية ، بل كان يريد أن يتدرج بها حتى تشمل حق إلغاء الشرائع من قبل الجماعات الشعبية ، وحق اقتراح الشرائع من قبل تلك الجماعات ، وفقاً للنظام النسوري الذي يمنع الفوضى والارتباك في تقرير القوانين ومراجعتها . أما الاشتراكية فكانت لازمة لبيان موقف الأمة من الأموال الأجنبية ، وكانت السكل والمواصلات والموانئ تدار لحساب الدول وبأموال شركاتها ، وكان الرعيم الصيني لا يرفض الاستعانة بالأموال الأجنبية ولكنه يرفض الاستغلال والتسخير ، ويرى أن يكون تعمير المال على القواعد الاشتراكية سواء في معاملة الأجانب أو معاملة أبناء الصين .

وهكذا يبدو لنا أن مطالب الأمم وضروراتها تفرض نفسها في شعار كل ثورة من ثوراتها ، فلا يمتاز كل ثورة بشعاراتها الخاصة لأنها نغمة عجيبة أو كلمات رنانة تغنى عنها الكلمات التي تماطلها رنة ونغمة ، وإنما يمتاز بشعاراتها الخاصة لأنها تعبر عن كيانها وعن وجهتها وعن البواعث التي تملئها .

## الثورة المصرية

وأوضح ما تتضمنه هذه الحقيقة في شعار الانقلاب المصري الأخير الذي قضى على حكم فاروق ثم قضى على حكم أسرته بحدافيرها ، فإن

هذا الشعار يقوم على كلمات ثلاث تجمع أشتات الفوارق التي بين موقف الأمة المصرية و موقف الأمم في ثوراتها . وشعار (الاتحاد والنظام والعمل) هو النسخة المصرية التي لا تلتبس بنسخة أخرى في وجهتها ولا في تعبيرها ؛ فليس في مصر مبدأ يثور على مبدأ ، ولا عقيدة تتمرد على عقيدة ، ولا مصلحة قومية تناقضها مصلحة قومية . ولكن شعار واحد ليس فيه من يثور ولا من يثار عليه ، لأن الوجهة واحدة متفق عليها لن ينكرها فريق حين يسلم بها فريق .

ويحضرنا هنا كل احتمال يحضر في خواطر المتحدلقين الذين يحسبون أنهم نفروا إلى سر من الأسرار لا يبدو على ظاهر الشعار . فقد يقال إن الشعار قد يدل عفو الخاطر فلم يدرس على هذا الاعتبار ، وقد يقال إنه يعلن القليل ولا يعلن الكثير . وقد يقال غير ذلك مما يستطيع المتحدلق أن يقوله في كل مقام : ولكن هذه الخواطر جميعاً لا تقدم ولا تؤخر كثيراً ولا قليلاً في جوهر الحقيقة التي يمثلها الشعار باختياره أو بغير اختياره . ولو كان للأمة المصرية مطلب دافع غير مطالب الشعار لما استطاع أحد أن يحمله باختياره أو بغير اختياره ، لأن المطلب الدافع يتمثل في شعوره وفي دعوته لا محالة ، فلا يتيسر السكوت عليه . إن شعار الثورة إذن هو شعار المصريين أح恨ن بغير فارق في وجهته ولا في دواعيه . كل المصريين يؤمنون بدعاوة الاتحاد ودعاوة النظام ودعاوة العمل . كل المصريين مخلصين وغير مخلصين ، فن لم يخلص منهم لن يقول إنه يأبى العمل أو يأبى النظام أو يأبى الاتحاد ،

ولكنه يصطنع العوامل التي تلتبس في ظاهرها بالصلحة العامة وتختفي من ورائها مأربه الشخصية . وهذا هو لب الباب في موضوع الثورة ؛ هذا هو الجوهر الأصيل الذي لا تجوز الغفلة عنه طرفة عين .

ليست العقبة في طريق الإصلاح مبدأ من المبادئ الأصيلة يدين به فرد أو طائفة من الأمة المصرية ويحصر على المحاجرة به بغير مواربة ولا تناقق ، ولكن العقبة في طريق الإصلاح هي العوامل المصطنعة التي لا تجري مع الحق الواقع في مجرىها ؛ وهذه العوامل المصطنعة هي آفة الآفات وهي العقبة الكبرى في كل طريق ؛ فمن أمثلتها الكبرى أسرة مالكة يقضي وضعها الصحيح أن تكون (سلطة شرعية) تحارب السلطة الفعلية بقوة الأمة ، ولكنها في الواقع إنما كانت تعمل عمل الغاصب الذي يحتبى في ثورة الأمة بقوة الاحتلال وتحسب أنها في أمان من الثورة عليها ما دام الاحتلال في البلاد . ومن الأمثلة الكبرى على العوامل المصطنعة وزارات الكثرة المزعومة التي عرقها مصر بعد مفاوضات المعاهدة ، فإن الوضع الصحيح لوزارات الكثرة أن تقوم بتأييد الأمة لمعارضة الاحتلال ، ولكنها في الواقع إنما كانت تأيي على النسوان بطلب الاحتلال لتسليم البضاعة ، وكانت في موقفها المتناقض تعجز عن إرضاء الاحتلال وعن إرضاء الأمة في وقت واحد .

وهناك أمثلة دون هذه الأمثلة تبرز لنا العوامل المصطنعة التي لا بد من تصحيحها بالوضع المحقق في غير مواربة ولا اصطناع .

هناك تلك الغيرة الكاذبة على الفقير باسم المذاهب المدamaة ، وما هي

في حقيقتها غير الدعائية الأجنبية تستر بالغيرة على الفقير ولا غيرة لها على أحد من أبناء البلاد فقيرهم وغنيهم على السواء.

وهناك الدفاع الكاذب عن الإقطاع باسم التاريخ أو باسم الدين؛ فما كانت في مصر ملكية زراعية ترجع في العصر الحديث إلى أبعد من القرن التاسع عشر، والإسلام يرحب بتعظيم الملكية ويشكر كل الإنكار أن تتحقق في أيد معدودات.

وعلى هذا النحو تنزل المصالح الوطنية والعوامل المصطنعة كل الانزال... فلا خلاف على المصلحة الوطنية الخالصة، وما من عقبة تقام في وجه الإصلاح إلا حين تستر الحقيقة بالتلقيق والاصطناع.

إن كل حركة تتصدى للإصلاح في مصر لا حاجة بها إلى عمل واسع تبتدئ به غير العمل على إزالة العوامل المصطنعة وتخليص القوى الطبيعية يجمع طبقات الأمة من آفات التزيف والرياء؛ وليس المطلوب منها أن تنتهي إلى إصلاح لا إصلاح بعده، أو إلى كمال لا نقص فيه، أو إلى رضى لا تبعث فيه شكايا. كلا. ونزيد فنقول: بل معاذ الله، فإن الإصلاح الذي لا إصلاح بعده موت. والكمال الذي لا نقص فيه وهم. والرضى الذي تبعته معه "شكايا بجود" لا يتعلق به الرجاء.

إنما ترول العوامل المصطنعة لتفضي العوامل الطبيعية في طريقها مرحلة بعد مرحلة وشوطاً بعد شوط وأمانة بعد أمانة، يتولاها جيل في إثر جيل.

## فلسفة الثورة المصرية

وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا وثورات غيرنا نرى أن التفاصيل على التفصيات قريب كالتفاهم على الأصول الكبرى.

فقد قرأت الصفحات التائين التي كتبها السيد الرئيس جمال عبد الناصر في كتاب «فلسفة الثورة»، فخرجت منها وأنا أعتقد أن الخلاف عليها أقل خلاف في مثل هذه الصفحات وفي مثل هذا الموضوع. صواب ولا شك أن الحركة المصرية لا توصف بأنها تمرد عسكري. ولا توصف بأنها ثورة شعبية، لأن الترد ما كان قط ولن يكون بإجماع الآراء واتفاق الأشخاص والألف والملايين، ولأن الثورة الشعبية لاسقاط ملك لا يحميه الجيش أمر غير مطلوب وغير مفهوم. صواب ولا شك أن الحاضر يعيش بحقيقة من مساوى العهود الماضية؛ وهذا هو باب الأسف والأسى. ولكنه كذلك باب الأمل والعزاء، لأنه يدفع اليأس من النفوس. إذا عولج فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح — إذ لم يكن يمكن في خمسة عين أن تزول رواسب قرون — صواب كذلك أن الشك آفة معطلة للجهود معطلة للأفكار والآراء، فليس الإنفاق وحده بالذى يشفع لأصحاب الشكوك ويعفهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد أجيال وأجيال، ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيع البليغ قبل شفيع الإنفاق. يقول السيد الرئيس جمال عبد الناصر: «كان من السهل وقتها وما زال سلاححتي الآن أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين، فنضع الرعب

والمروف في كثير من النقوص المترددة وفرغها على أن تتطلع شهواتها وأحقادها وأهواها ... » ثم يقول : « ولكن أي نتيجة كان يمكن أن يؤدي إلى مثيل هذا العمل ؟ كان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعاً تلك الآثار . » نعم . . . يكون ذلك ظلماً ويكون أكثر من ظلم لأنه يصيب من لم يصبه العقاب فيصافع داء الشك والخدر وييطل فائدة العلاج وينشئ من عقباه .

ونضرب المثل للذك بالشاهد المحسوس : رجل تكلفه أن يعلو على خط واحد إلى مسافة ميل ، فإنه ليعلو على ذلك الخط ويعود في مدى ساعة أو أقل من ساعة ولا يحتاج إلى حيز من العرض يزيد على شبرين أو ثلاثة أشبار ، ثم تكلف ذلك الرجل نفسه أن يعلو فوق جدار يعلو على الأرض عدة أشبار ويتسع في عرضه بأكثر من ثلاثة أشبار ، فإن لم يسقط بعد خطوات فإنه لن يصل إلى نهاية الشوط قبل ساعات . . وماذا تغير بين الحالتين ؟ لم يتغير الرجل ولم يتغير الحيز ولم تتغير المسافة ، وإنما تغيرت (حالة نفسية) فتغير معها كل شيء . هل يفيد أن تقول للذك الرجل إن حشرتك يا هذا غير معقول ؟ إنه قد يكون مماثلاً لك ليمان الناصح له أو يزيد ؛ ولكتها على هذا نصيحة لاتفيض . وهل نستطيع أن نعلم الرجل رياضة الأعضاء على الحركة حتى يتعلماها ويتعودها ويتحرك فوق الجدار كما يتحرك في الأرض الذلول ؟ نعم نستطيع ، ولكنه إذن جهد في العمل أكبر من نتيجته وأضيع للوقت من تركه والعمل بغيره ، وخير لنا الجهد الذي يبذل بمقداره وإن عظم المقدار

على أن الصفحات المئانين التي تحمل اسم «فاسفة الثورة» لا تنسى  
بالقارئ في حدود الأفق المصري. وإن كانت لا تخرج به من آفاق المسألة  
المصرية في أوسع حدودها، فالصحراء في عصرنا هذا لا يهم بوطنه حفناً إن  
لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق أو عوالم لا انفصال لها من وطنه، وهي العالم  
العربي، والعالم الإفريقي، والعالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه. إن مصيبة  
الاستعمار أنه أوقع في التفوس أن السياسي لا يهم بأمة أخرى إلا ليطبع  
فيها أو يسيطر سيادته عليها، ولكننا حريون أن نذكر على الدوام أننا (غير  
مستعمرين). وأننا لانحتاج إلى جهد كبير أو صغير لتنقى هذه الشيبة  
عنا، فليس في وسع أحد أن يتهمنا بها ويجد من ذوى العقل السليم من  
يسمع إليه.

أين نحن من العالم العربي؟ أين نحن من العالم الإفريقي؟ أين  
نحن من العالم الإسلامي؟ نحن في قلب كل عالم من هذه العالم، فليس  
في وسعنا أن نجهل علاقتنا به ومستقبلنا فيه. يقول الرئيس جمال: «إن نصف  
الاحتياطي الحق من البترول في العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية،  
فتحن أنفوس أقوياء، ليس في علو صوتنا حين ننادل... وإنما أقوياء  
حين نهادأ أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل».  
ويقول: «إننا لن نستطيع بحال من الأحوال — حتى لو أردنا —  
أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي الخيف الذي يدور اليوم في أعمق  
أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الأفريقيين...  
إننا في أفريقيا... والنيل شريان الحياة لوطتنا، يستمد ماءه من قلب

القاراء. ويبيّن أيضًا أن السودان — الشقيق الجايب — تحتمد حدوده إلى أعماق أفريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة في وسطها ، والمؤكّد أن أفريقيا الآن مسرح لفوران عجيبٍ مثيرٍ ، وأن الرجل الأبيض الذي يمثل عدّة دول أوروبية يحاول الآن إعادة خريطةها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذي يجري في أفريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا » .

ويقول في العالم الإسلامي : « حين أسرح بخيالي إلى ثمانين مليوناً من المسلمين في إندونيسيا ، وخمسين مليوناً في الصين ، وبضعة ملايين في الملايو وسiam وبورما ، وما يقرب من مائة مليون في الباكستان ، وأكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليوناً داخل الاتحاد السوفييتي ، وثلاثين غيرهم في أرجاء الأرض المتباudeة — حين أسرح بخيالي إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج بحساسٍ كبيرٍ بالإمكانات المائة التي يمكن أن يتحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً ، تعاون لا يخرج عن حدود ولا هم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة » .

وهذا كلّه صحيح في الجملة والتفصيل ، وليس الاهتمام به من طموح الشباب كما يتخيل التخييل الواضع في عقر داره ، بل أخشى أن أقول إنه من أعباء الشيّوخة قبل أوانها ، بل من همومها في إيمانها إن كان حل المuros بعيدة وفقاً على الشيّوخ . ماذا نصنع إن جنى الترول على العالم العربي فضيّعه بدلًا من تزويده بأسباب القوة والمناعة؟ وماذا نصنع إن أصبحت

أفريقيا للمستعمرات الأوروبيين ولم تصبح في الغد القريب أفريقيا للأفريقيين؟ وماذا نصنع إن تهدمَ معنى الحياة كـ«المادبة الحيوانية» أو كـ«الممثلة الحضارة الحسية» ولم نعتصم من التيار الحارف بعصمة شريفة تعمّر نفوس الملايين وترتفع بها من غمار الذل والاستكاثة أو غمار الفنوط والخيرة؟

### فروض جسام

ولتكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا تنتام، وليس علينا بالبداية أن نعمل كل شيء، ليس علينا أن نعمل لنعني من يأوي بعدها من العمل؛ فإننا إن أعفيناها من العمل أساناً إلينا؛ ولكننا تركنا له واجبه ونهض بواجبنا. وواجب كل جيل من أجيال الأمم أن يُبقي لمن بعدهه أمانة ولا يُبقي له قيوداً من عمله أو أثقالاً من جرائم إهماله وتغريمه؛ وإذا استطعنا أن نقول للأجيال المقبلة إن دينكم لنا أعظم من ديننا لأن أسلافنا نبغى الأوفىاء وهم الرابحون.







**To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)**